



الحمد لله وحده، والصلوة والسلام على من لا نبيّ بعده، والرضا عنّ اتبع سنته، واقتفي هديه، ونصر دينه، وبعد: فقد ضرب الله لعلماء السوء مثيلين شنيعين مخيفين في كتابه، تحذيراً لكلّ من حمل أمانة العلم وتخويفاً، ليعلموا أنّ مسؤولية العلم كبيرة، وأمانة الحقّ ثقيلة، وأنّهم على نعمة من الله عظيمة، إن لم يقوموا بحقّها كانوا من الهاكين يوم القيمة. يقول الله - تعالى - : {وَأَنْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَا أَيَّاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِهِمْ فَاقْصُصِ الْقَمَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَكَبَّرُونَ} [الأعراف: 175-176].

ويقول - تعالى - : {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِسَرَّ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِهِمْ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة: 5].

وتأمل المثل الأول مثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتّبع الشّيّطانُ فكان من الغاوين، وتدرك هذا التعبير الإلهي المعجز: {آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا...}. وهذا صنف من علماء السوء المنتكسين عن الحقّ والهدى، الذين باعوا دينهم بثمن بخس، من دنيا خسيسة، أو باعوا دينهم بدنيا غيرهم، أو بدنيا عدوهم.. وتلك أسوأ صورة لهم.. واسمح لي أن نقف قليلاً مع توضيح هذا المثل، كما جاء في بعض التفاسير، وما له من آفاق وأبعاد..

قال صاحب تفسير المناج: "هذا مثل ضرر الله - تعالى - للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله - صلى الله عليه وسلم - على ما أيدتها به من الآيات العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها وأحكامها، قادرًا على بيانها والجواب عنها، ولكنه لم يُؤتِ العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفًا لعلمه تمام المخالف، فسلبه؛ لأنَّ العلم الذي لا يُعمل به لا يثبت أنَّ يزول، فأشبّه الحياة التي تتسلّخ من جلدِها وتخرج منه وتترُكُه على الأرض - ويسمى هذا الجلد المسلّاخ - أو كان في التباين بين علمه وعمله كالمسليخ من العلم التارك له، كالثوب الخلق يُلقيه صاحبه، والثعبان يتجرد من جلدِه حتى لا تبقى له به صلة.. لقد لحقه الشّيّطان، فأدركه وتمكّن من الوسوسَة له، إذ لم يبقَ لديه من نور العلم وال بصيرة ما يحول دون قبول وسوسته، وأعقب ذلك أنَّ صار من الغاوين، أي الفاسدين المفسدين".

ويقول الإمام الرازى في تفسيره: "وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنَّه - تعالى - بعد أن خصَّ هذا

الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لما اتبَعَ الهوى انسلاخ من الدين وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كلَّ من كانت نعم الله في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى، وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله أعظم، وإليه الإشارة بقوله - عليه الصلاة والسلام - : ((من ازداد علمًا، ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدها)), أو لفظ هذا معناه. ثم قال - تعالى - : {فَمَنْتَهُ كَمَنَ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَيْنِهِ يَأْهَمُهُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَأْهَمُهُ}، قال الليث: اللهم هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة الحر، فإنه يدع لسانه من العطش.

واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأحسن الحيوانات هو الكلب، وأحسن الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخذ إلى الأرض، كان مشبهًا بأحسن الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل وجوه: الأول: أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواطن عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم والدين، أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنَّه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقى نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة. وطبيعته الخسيسة، لا للحاجة والضرورة. والثاني: أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا، فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنَّه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات يدع لسانه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالي شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبداً من غير حاجة ولا ضرورة، بل بمجرد الطبيعة الخسيسة، والثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهثه البة، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البة.

أما قوله - تعالى - : {إِنْ تَحْمِلُ عَيْنِهِ يَأْهَمُهُ..}؛ فالمعنى أنَّ هذا الكلب إن شدَّ عليه وهيج لهث وإن ترك أيضًا لهث، لأن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له، فكذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، لأن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعة ذاتية له.

ويقول سيد - رحمه الله -: "إنَّ مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كلَّ الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات.. إنسان يؤتى الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكنه ينسلاخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلاخ كأنما الآيات أديم له متibus بلحمة فهو ينسلاخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أحيمه اللاصق بكيانه.. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟.. ها هو ذا ينسلاخ من آيات الله ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق، فيلتتصق بالطين المعتن، فيصبح غرضاً للشيطان، لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إنَّنا نحن أولاء أمام مشهد مفعز بائس نكدي.. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقاً بالأرض، ملوثاً بالطين. ثم إنَّه هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد.. كلَّ هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثير.. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها.. مشهد اللهاث الذي لا ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحى، على المشهد كله: {ذَلِكَ مَثُلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَقْصَصُ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} * ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ}.. ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى ومحويات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم.. ثم إنَّهم ينسلاخون منها انسلاخاً. ثم إنَّهم أمساخ شائيهو الكيان، هابطون عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يردون به إلى علين، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين! {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ!}..

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعرى من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟

وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعرinya من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمهها ويركبها، وبهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبداً!!! وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصویرها على هذا النحو العجيب الفريد إلا هذا القرآن العجيب الفريد!!

وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخدون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى.. هوامٌ وهو المتسطلين الذين يملكون لهم في وهمهم عرض الحياة الدنيا.

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها. ويعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوی المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتمدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً؟!

ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر.. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعنانينه.. فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقاً لنبا الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها، فأتبّعه الشيطان فكان من الغاويين؟

وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسمى الذي يحكى الله - سبحانه - عن صاحب النبأ: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}. فمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرْكُهُ يَلْهَثُ!} .. ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته.

ولكنه - سبحانه - لم يشاً، لأن ذلك الذي علم الآيات أخذ إلى الأرض واتبع هواه، ولم يتبع الآيات..

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان، ولينتهي إلى المسمى في مرتبة الحيوان! والإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرباً في الحياة، حتى وإن كان في نعمة، لأنّه معزول عن الله، وما دام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيديوم لي هذا النعيم أو لا يديوم؟ إنه يعيش دائماً في قلق ورعب.. ومثله كالكلب يلهم حال راحته، ويلهم حال تعبه.

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟ إنه في حسناً كما توحيه إيقاعات النبأ وتصویر مشاهده في القرآن.. ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤمنهم الله آياته فينسلخون منها.. ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً. ولا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبداً! والحياة البشرية ما تنتهي تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل بيئة.. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تقاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثلك. فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلّهم الشيطان، ولا يلهمون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان!.. فهو مثل لا ينقطع وروده وجوده، وما هو بممحور في قصة وقعت، في جيل من الزمان! وقد أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتلوه على قومه الذين كانت تننزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أتواها. ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو. فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة! ولقد رأينا من هؤلاء - والعياذ بالله - في زماننا هذا من كان كأنما يحرصن على ظلم نفسه، أو كمن يغض بالنواخذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينافسه إيه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يبني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يبني يلهم وراء هذا المطعم لهاثاً، لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا! اللهم اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين..

ثم نقف أمام هذا النبأ والتعبير القرآني عنه وقفه أخرى.. إنه مثل للعلم الذي لا يعصم صاحبه أن تنقل به شهواته ورغباته فيخلد إلى الأرض لا ينطق من ثقلتها وجاذبيتها وأن يتبع هواه فيتبعه الشيطان ويلزمه ويقوده من خطام هذا الهوى..

ومن أجل أن العلم لا يعصم يجعل المنهج القرآني طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة الإسلامية، ليس العلم وحده لمجرد

المعرفة، ولكن يجعل العلم عقيدة حارة دافعة متحركة لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وفي عالم الحياة أيضاً.. إنّ المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة (نظيرية) للدراسة.. كذلك هولا يقدم هذا الدين دراسات في (النظام الإسلامي) ولا في (الفقه الإسلامي) ولا في (الاقتصاد الإسلامي) ولا في (العلوم الكونية) ولا في (العلوم النفسية) ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية! إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة محبية موقظة رافعة مستعلية تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل، وتحيي موات القلب فينبض ويتحرك ويتطلع، وتتوظّف أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة فترجع إلى عهد الله الأول وترفع الاهتمامات والغايات فلا تقلّلها جاذبية الطين، ولا تخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدمه منهجاً للنظر والتبرير يتميز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر، لأنّه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائهم وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقلة الأبدان، وإغواء الشيطان! ويقدمه ميزاناً للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم، وتقاس به وتوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم، مما قبله منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه وما رفضه هذا الميزان كان خطأً يجب الإقلال عنده.

ويقدمه منهجاً للحركة يقود البشرية خطوة خطوة في الطريق الصاعد إلى القمة السامية. وفق خطاه هو ووفق تقديراته.. وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ الناس نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم. ثم يصوغ الناس بعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية، وعلومهم الكونية والنفسية، وسائل ما تتطلبها حياتهم العملية الواقعية.. يصوغونها وفي نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها، وجدية الشريعة وواقعيتها، واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية.. أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقلة الأرض، ودفعه الهوى، وإغواء الشيطان، ولا يقدم للحياة البشرية خيراً..".

المصدر: رابطة العلماء السوريين

المصادر: